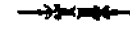


القضايا الكبرى في الوسم

نسب زياد

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي



كان من أنكحة الجاهلية أن الجماعة يباشرون النبي ، فإذا ولدت ألحقت الولد بمن شاءت منهم فيلقه ، وكانت سمية أم زياد لدهقان فارسي ، فرض فدغا الحارث بن كعدة الطيب التقي فمالجه فبرى فوهبه سمية ، وقد ولدت عند الحارث أبا بكرة واسمه نفيح ، فلم يقربه ، ثم ولدت نافعا فلم يقربه أيضا ، فلما نزل أبو بكرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم حين حاصر الطائف قال الحارث لنافع أنت ولدي ، وكان قد زوج سمية من غلامه عبيد الرومي ، فولدت زيادا بعد زواجه بها ، فكان يدعى له إلى أن استلقته معاوية في ملكه بنسب أبيه

وذلك أن أبا سفيان بن حرب كان قد صار في الجاهلية إلى الطائف ، فنزل على خمار يقال له أبو مريم السلولي ، وقد أسلم بعد هذا وصحب النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له أبو سفيان : التمس لي بغيا . فذله على سمية فجاءت زياد في السنة الأولى من الهجرة

فلما كبر زياد ونشأ كان امرأ حازما خطيبا فصيحاً ، فاتخذ أبو موسى الأشعري كاتباً له في ولايته على البصرة ، ثم إن عمر بن الخطاب استكفي زياداً امرأ ، فقام به على أحسن وجه فلما عاد إليه حضرو عنده وجوه المهاجرين والأنصار ، فخطب خطبة لم يسمعوا بمثله ، فقال عمرو بن العاص : لله هذا الغلام ، لو كان أبوه من قرين لساق العرب بمصاه . فقال أبو سفيان : والله إنني لأعرف أباه . فقال علي : يا أبا سفيان اسكت ، فإنك تعلم أن عمر لو سمع هذا القول منك لكان إليك سريماً

وقد كان هذا من أبي سفيان أول خطوة في استلحاق زياد به وإنما تأخر بها إلى هذا العهد لأنهم كانوا يكرهون استلحاق أولاد الإماء بأنسابهم ، ولا سيما إذا كان على ذلك النوع من

الأنكحة فإذا أنجب ولد الأمة لم يروا بأساً في استلحاقه بأنسابهم ، ولكن أبا سفيان حين فكر في ذلك وجد أن أمره قد نسخ بالإسلام ، لأنه حرم ذلك النوع من النكاح ، وقضى بأن الولد للفراش وللماهر الحجر ، ولكنه أقر كل ولد كان ينسب إلى أب من أي نكاح كان من أنكحتهم على نسبه ، ولم يفرق بين شيء منها ، لأن كل تشريع لا يجري إلا على الحاضر . ولا يجري على الماضي إلا في رفع ظلم قائم ، أو نحو ذلك مما يجوز الأخذ به فيه ، فسكت أبو سفيان على مضض ، لأنه لم يكن له من الشأن في الإسلام ما يمكنه من التصرف في ذلك الأمر ، وكان شأنه في ذلك شأن كل من تأخر في الإسلام من أشراف الجاهلية

وقد نبه شأن زياد في خلافة علي ، وتولى له فارس فضبطها وحس قلاعها ، فلما اتصل خبره بمعاوية ساءه وكتب إليه يهدده ويبرئ له بولادة أبي سفيان ، فجمع الناس وقام فيهم خطيباً فقال : العجب كل العجب من ابن آكلة الأكباد ، ورأس النفاق ، يخوفني بقصده إياي ويبنى وبينه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم في المهاجرين والأنصار ، أما والله لو أذن لي في لقائه لوجدني أحمر . مخشياً ضراباً بالسيف

ولما بلغ ذلك علياً كتب إليه : إني وليتك ما وليتك وأنا أراك له أهلاً ، وقد كانت من أبي سفيان فلتة من أمانى الباطل وكذب النفس ، لا توجب له ميراثاً ، ولا تحمل له نسباً ، وإن معاوية يأتي الإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، فاحذر ، ثم احذر ، والسلام

وكان بعد هذا أن استتب الأمر لمعاوية بعد قتل علي وتنازل الحسن له ، فأبقى زياداً في فارس وصالحه على ألفي ألف درهم ، وسكت عن استلحاقه بنسب أبيه لأنه لم يبق له حاجة فيه فصار زياد هو الذي يسمى في أمر ذلك النسب ، ويجهد في استمالة معاوية إليه ، حتى جعل لمصقلة بن هبيرة الشيباني عشرين ألف درهم على أن يذهب إلى معاوية ويقول له : إن زياداً قد أكل فارس برأ ، ويحرق ، وسالحك على ألفي ألف درهم ، والله ما أرى الذي يقال إلا حقاً . فإذا قال : وما يقال ؟ قال له : يقال إنه ابن أبي سفيان : ففعل مصقلة ذلك ، ورأى معاوية أن

ثم قعد فقال : يا ابن عامر ، أنت القائل في زياد ما قلت ، أما والله لقد علمت العرب أني كنت أعزها في الجاهلية ، وأن الإسلام لم يزدني إلا عزاً ، وأني لم أتكثر زياد من قلة ، ولم أتعز به من ذلة ، ولكن عرفت حقاً له فوضعت موضعه -

فقال ابن عامر : يا أمير المؤمنين ، ترجع إلى ما يحب زياد
فقال : إذن ترجع إلى ما تحب . فخرج ابن عامر إلى
زياد فترضاها

وقد دخل الشعر والسياسة في هذا الحسب فغلوا فيه غلواً
فاحشاً ، وكانت هناك خصومة بين بني زياد وبني مضر
الشاعر الحميري ، فقال في ذلك شعراً كثيراً مقتضياً ، هجاءه
زياداً وبنيه ، من ذلك قوله :

مغلظة من الرجل البهائي
وترضى أن يقال أبوك زاني
كرحم الفيل من ولد الأمان
وصخر من سُمِّيَةِ غبر دان
ولا أبلغ معاوية بن حرب
أنفضب أن يقال أبوك عَفْثُ
فأشهد أن ربحك من زياد
وأشهد أنها ولدت زياداً
ومنه أيضاً :

إذ أودى معاوية بن حرب فبشر شعب قلبك بانصداع
فأشهد أن أمك لم تبشر أبا سفيان واصمة القناع
ولكن كان أمر فيه كبس على وجل شديد وارتياع
وذكر ابن الأثير أن من اعتذر لمعاوية قال : إنما استلحق
معاوية زياداً لأن أنكحة الجاهلية كانت أرواحاً لا حاجة إلى
ذكر جميعها ، وكان منها أن الجماعة يباشرون البسني ، فإذا
حملت وولدت ألحق الولد بمن شاءت منهم فيلحقه ، فلما جاء
الإسلام حرم هذا الفكاح ، إلا أنه أقر كل ولد كان ينسب إلى
أب من أي نكاح كان من أنكحتهم على نسبه ، ولم يفرق
بين شيء منها ، فرأى معاوية أن ذلك جائز له ، ولم يفرق
بين استلحاق في الجاهلية والإسلام

ثم ذكر أن هذا مردود لانفاق المسلمين على إنكاره ،
ولأنه لم يستلحق أحد في الإسلام مثله ليكون به حجة
وإني أرى أن هذا الحكم كان أهون مما ظن أولئك القوم ،
وأن معاوية كان أكبر من أن يكون استلحاقه لزياد أول
ما ردت به الشريعة علانية ، فهو من أكبر أحجاف رسول الله

يستعمل زياداً ويستصفي مودته باستلحاقه ، فاتفق معاوية وزباد
على ذلك الاستلحاق ، ثم أحضر معاوية الناس ، وحضر من
يشهد زياد بذلك النسب ، وكان فيمن حضر لاشهادة أبو مريم
السولي ، فقال له معاوية : بما تشهد يا أبا مريم ؟ فقال أنا أشهد
أن أباسفيان حضر عندي وطلب مني بنيّاً ، فقلت له : ليس
عندي إلا سمية . فقال : ائتي بها على قدرها ووضرها ، فأتيته
بها فخلا معها ، ثم خرجت من عنده وإن أسكتَ نبيها ليقطران
من نبيّا . فقال له زياد : مالا أبا مريم ، إنما بعثت شاهداً ،
ولم تبعث شاتماً

فاستلحقه معاوية بعد هذا بنسب أبيه ، وصار يدعى
زياد بن أبي سفيان ، وكان يدعى زياد بن عبيد . وقد اختلف
الناس في هذا الحكم اختلافاً كبيراً ، فرأى كثير منهم أنه
أول ما رُدت به أحكام الشريعة علانية ، لأن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قضى للولد للفرش وللماهر بالحجر ، وقد عظم ذلك
على المسلمين عامة وعلى بنى أمية خاصة ، وكانت عائشة ممن لم
يرض عن هذا الحكم ، فكتب زياد إليها : من زياد بن أبي
سفيان . وهو يريد أن تكتب له : إلى زياد بن أبي سفيان .
فيحتج بذلك ، فكتبت إليه : من عائشة أم المؤمنين إلى ابنها زياد .
وكان عبد الله بن عامر من بنى أمية ممن أنكر أيضاً ذلك
الحكم ، وهو عامل لمعاوية على البصرة ، فلما وفد زياد على معاوية
كان معه رجل من عبد القيس ، فقال لزياد : إن لابن عامر عندي
يداً ، فإن أذنت لي أتيته . فأذن له على أن يحدنه بما يجري
بينهما ، فلما أتى ابن عامر قال له : هيه هيه ، وابن سمية يقبج
آثاري ، وبعتض لهالي ، لقد هممت أن آتي بقسامة من
قريش يحلفون بالله أن أبا سفيان لم ير سمية . فلما رجع إلى زياد
سأله فلم يخبره ، فألح عليه حتى أخبره ، فأخبر زياد معاوية بذلك
فقال لحاجبه : إذا جاء ابن عامر فاضرب وجهه دابته عن أقصى
الأبواب . ففعل ذلك به ، فأتى ابن عامر يزيد فشكى ذلك إليه
فركب معه حتى أدخله ، فلما نظر إليه معاوية قام فدخل ، فقال
يزيد لابن عامر : اجلس ، فكم عسى أن يقدم في البيت عن غير
جلسه . فلما أطالا خرج معاوية وهو يتمثل :

لنا سياقٌ ولكم سياقٌ قد غلت ذلکم الرفاقُ